

كتب بالإنكليزية

محاولة اختراع هوية إسرائيلية وفشلها: الدولة والمجتمع والعسكريات*

The Invention and Decline of Israeliness: State, Society and the Military

Baruch Kimmerling

Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2001.

268pages. \$45.00 cloth.

يضع باروخ كيمرلينغ، وهو من أبرز علماء الاجتماع في إسرائيل، كتابه في سياق الجيل الثالث من الأبحاث السوسيو تاريخية عن المجتمع الإسرائيلي. وهو يعتبر هذا الكتاب مكملاً لسلسلة من الأعمال كان أطلقها س. ن. أيزنشتات، مؤسس هذا النوع من الأبحاث، وأعمال الجيل الثاني من علماء الاجتماع والسياسة الذين كانوا في معظمهم من أتباع أيزنشتات. وتستند الفوارق بين هذه الجماعات إجمالاً إلى العمر والمنظور.

يذهب كيمرلينغ إلى أن الفترة الأولى سادها نشر كتاب إيزنشتات الكلاسيكي *Israeli Society* (Basic Books, 1967)، الذي ظل يُعدّ مدة أعوام في إسرائيل والولايات المتحدة، وفي صفوف كثير من العلماء الأوروبيين الغربيين، تحليلاً ذا صدقية للبنية الاجتماعية الإسرائيلية. فالكتاب، المسبوك في قالب علم الاجتماع الوظيفي الأميركي، يصور المجتمع الإسرائيلي على أنه بوتقة الصهر التي تتم فيها قيادة المجموعات التقليدية نحو الحداثة من خلال المؤسسات الحكومية العاملة على التنشئة الاجتماعية (ولا سيما النظام التربوي والجيش)، ومن خلال الجماعة الإثنية الأشكنازية. وقد استخدم الاستقطاب البسيط للنزعة التقليدية في مواجهة الحداثة، لوصف عملية استيعاب الجماعات اليهودية الشرقية المهاجرة، وتنمية مختلف الجماعات الإثنية والجماعات ذات المكانة، وتساعد دور المؤسسات الاجتماعية البيروقراطية والمعايير الشمولية. ونظراً إلى انتمائه إلى المدرسة الوظيفية، صنف أيزنشتات العلاقة الاجتماعية قياساً بالانسجام. فالصراعات الاجتماعية، أو مقاومة سياسة بوتقة الصهر، كانت تصوّر باعتبارها علامات على الشذوذ عن القاعدة أو اللانتماء.

وبالنسبة إلى كيمرلينغ، فإن الجيل الثاني من الأبحاث السوسيو تاريخية انساق وراء أعمال تلامذة أيزنشتات الأوفياء، من أمثال دان هوروفيتس وموشيه ليساك ورفقة بار - يوسف، الذين ظلوا يقدمون أيديولوجيا الصهيونية العمالية باعتبارها تحليلاً سوسيو لوجياً "موضوعياً". ومع ذلك فإن قلة من الباحثين اختارت نماذج مختلفة. من ذلك أن يونثان شابيرو كان أبرز الأكاديميين بين أئدائه الذين انحرفوا عن النموذج الوظيفي السائد واختاروا بديلاً نقدياً. فقد استند شابيرو إلى نموذج النخبة الحاكمة الذي طوره عالم الاجتماع الأميركي س. رايت ميلز، لكشف الطبيعة السطحية للديمقراطية الإسرائيلية. فبدلاً من الإجماع والحداثة والديمقراطية، كسمات غالبية على الواقع الإسرائيلي، سلط شابيرو الضوء على عمليات آلة السيطرة التي يتحكم فيها حزب العمل (مباي التاريخي)، والتي تعمل لضمان استمرار السيطرة الأشكنازية (ولا سيما سيطرة الذين عاشوا في اليبشوف وأسسوا إسرائيل)، وسيادة الصهيونية العمالية. لكن، وكما لاحظ كيمرلينغ بحق، لم يحلّ شابيرو العلاقات البينية للجماعات وتأثير أيديولوجيا الصهيونية العمالية وممارستها في مختلف الجماعات.

اتسمت الحقبة الثالثة بانحطاط الصهيونية العمالية والذين يتغنون بها. فمنذ سبعينيات القرن العشرين راحت أيديولوجيا بوتقة الصهر السائدة تفقد اندفاعها، كما أن النموذج الاجتماعي الذي ترجمها إلى لغة علم الاجتماع راح يتعرض، منذ نهاية ذلك العقد، لمزيد من التحديات من جانب كتلة متنامية من المعطيات والتنظير.

وقد شهد كيمرلينغ في حياته صعود النخبة الأشكنازية المحنكة وانحطاطها وعجزها عن إقامة مجتمع إسرائيلي ينسجم مع رؤيتها. وإذا استندت هذه النخبة إلى الأساطير التي حاكمتها عن تجربتها، حاولت من خلال سياسة بوتقة الصهر أن تهدي الجماعات اليهودية الأخرى وتقنعها بالصورة التي وضعتها للهوية الإسرائيلية. وهكذا يكتب كيمرلينغ: "كانت الغاية... خلق هوية جماعة جديدة أو وطنية - تتشكل وفقاً لنموذج يثبّت بحزم ثقافة اليبشوف الأصلي باعتبارها النموذج المشروع الوحيد داخل الجماعة، وكصدر لرأس المال الثقافي. وكان في صميم هذه الهوية الجديدة فكرة الدولة ومذهب بوتقة الصهر" (ص 97). والصورة المركبة للهوية الإسرائيلية هي نمط مثالي (باستخدام مصطلح ويبر)، يشتمل على مختلف سمات الهوية الفردية كالعلمانية، والثقافية، والقوة الجسدية (التي

تفترض الاستعداد للقيام بأعمال مضيئة جسدياً والقتال)، والاستعداد للانخراط في تحقيق أهداف جماعية، والتعلم.

منذ أوائل سبعينيات القرن العشرين راحت هذه النخبة تتعرض للتحديات من جانب الثقافة الدينية القومية. كانت هذه الجماعة أول من نهض في وجه نظام الصهيونية العمالية المتراجع، وذلك بسبب موقفه الملتبس من الدين. فبينما كانت هذه الصهيونية تتشكل بهيئة حركة ليبرالية تلتزم مبدأ التنوير، كانت تحتاج إلى اليهودية للحصول على الشرعية في أوساط اليهود وتعزيز مزاعمها في فلسطين. وبالتالي أتاحت حيزاً معيناً للرموز اليهودية وعقائدها في المجال العام. علاوة على ذلك كانت حماسة هذه الجماعة (غوش إيمونيم) في استيطان الأراضي المحتلة، تقدم بديلاً من شأنه أن ينشط سلطة الدولة المتدهورة.

وقد لحق بالتحدي الذي شكلته الصهيونية القومية في وجه الهوية الإسرائيلية تحديات من مجموعات إثنية/قومية أقل قوة تمثل الثقافات، والثقافات الفرعية والمضادة. وكانت النتيجة النهائية تجزؤ المجتمع الإسرائيلي. ويذهب كيمرلينغ إلى أن سبع جماعات ثقافية ورثت الهوية الإسرائيلية المتدهورة: القومية الدينية؛ القومية الأورثوذكسية (يهودية غير صهيونية)؛ السفارادية التقليدية؛ العربية الإسرائيلية؛ الطبقة الوسطى العلمانية؛ الناطقة بالروسية؛ الإثيوبية. لكن واقع التجزؤ هذا لم يفض إلى تفتت المجتمع الإسرائيلي. فثمة مبدآن مهمان يستمران في ربط الجماعات اليهودية معاً: المبدأ الثقافي لليهودية، ومبدأ الأمن. وعن المبدأ الثاني يكتب كيمرلينغ:

في الواقع، إن كل ما تبقى من الهوية اليهودية الأصلية لإسرائيل، وبمعزل عن مصلحة السكان جميعاً في استمرار وجود الدولة، إنما هو قيمها العسكرية، في حين أن الهوية اليهودية التي كانت موجودة من قبل قد تم تهميشها وإيجاد بديل مكافئ لها. أما هذه القيم العسكرية، والتي تحمل نزعة سلطوية، فتجتمع حول مبدأ مشترك أو "منظم" — ألا وهو الحاجة إلى العنف المؤسسي، الذي يستلزم الاستعداد الدائم للحرب الشاملة وللاستعمال الظرفي للعنف المحدود — وتشكل مركباً عسكرياً — ثقافياً. (ص 209)

إن سيطرة العسكر في المجتمع الإسرائيلي لم تأت به إلى السلطة، بل برزت العسكرة المدنية بدلاً من ذلك. واستناداً إلى هذا الشكل، لا يقتصر الأمر على تغليب الاعتبارات العسكرية من حيث الأولوية على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية، بل إنه يصبح نمط التفكير السائد، ويحكم على كل الاعتبارات الأخرى من حيث تأثيرها في الأمن. وهكذا يصبح السلام مثلاً مسألة عسكرية. يضاف إلى ذلك أن "الساسة المدنيين المتعسكين ينظرون إلى الحرب باعتبارها تكملة مكافئية للدبلوماسية والسياسة الداخلية" (ص 215). وإذا يتصرف القادة الإسرائيليون من ضمن هذا المنظور، فهم لا ينظرون إلى السلام مع الدول العربية، كمصر والأردن، إلا من حيث هو طريقة لتعزيز موقع إسرائيل العسكري في مواجهة الدول العربية الأخرى والفلسطينيين. يضاف إلى ذلك أن اتفاق أوسلو إنما تم من أجل التفويض إلى السلطة الفلسطينية بعض المسؤوليات الرقابية على المناطق الأهلية بالفلسطينيين، مع التمسك بامتياز الحفاظ على الأمن بصورة عامة.

في رأيي أن كيمرلينغ أفلح في دمج عدة موضوعات وطروحات تقدم بها دارسو المجتمع الإسرائيلي، ولا سيما في صفوف الجيل الثالث من علماء الاجتماع. ويشتمل هذا على مناقشته قضايا ومسائل تعتبر "متطرفة" في الخطاب الأكاديمي الإسرائيلي، كوصف المجتمع الإسرائيلي بأنه مجتمع استعماري استيطاني، وتضمينه النزعة العسكرية كمكون أساسي في تطور المجتمع الإسرائيلي، والدور الكبير الذي أداه الصراع العربي — الإسرائيلي في التغيرات التي طرأت على المجتمع الإسرائيلي والهوية الإسرائيلية.

ومع أن كيمرلينغ وضع دراسة رصينة وخالية من الأوهام عن مجتمعه، فقد قصر عن أخذ بعض العوامل المؤثرة بعين الاعتبار، ومنها العامل الديموغرافي والعولمة. ففي النهاية، لا بد من أن يدرك المرء أن فشل بوتقة الصهر يتعلق أيضاً بالنسبة المتدنية ديموغرافياً للنخبة المتدهورة. يضاف إلى ذلك أن العولمة تؤثر سلباً وبصورة مباشرة في الهوية الإسرائيلية، إذ إن هذه الأخيرة تصور نفسها على أنها جزء من "الحضارة الغربية". على المستوى النظري، يؤسس كيمرلينغ دراسته بالدرجة الأولى على نظريات علم الاجتماع المحافظة، وهو يكتب بأسلوب وضعي، وهاتان سمتان تحدرتا إليه من الجيلين الأول والثاني من علماء الاجتماع الإسرائيليين. وهكذا فإن كتابه مصاب بمصطلحات تجعله عسير التناول على جمهور أوسع.

إن كيمرلينغ، كمعظم زملائه اليهود الإسرائيليين على امتداد الأجيال، لا يعير كتلة الأبحاث التي وضعها الفلسطينيون أي اهتمام. علاوة على ذلك، فإن قراره بمناقشة مواطني إسرائيل من الفلسطينيين، في الفصل الخامس الذي يعالج "القادمين الجدد"، أمر محير. فثمة عدة أخطاء وسوء تمثيل للحوادث التاريخية، ولا سيما في الفصل الأول. غير أن الكتاب يشكل، على وجه الإجمال، إنجازاً علمياً مهماً، وهو بلا شك أكثر التحليلات السوسيو تاريخية للمجتمع الإسرائيلي المتاحة للاختصاصيين والدارسين/الطلاب رصانة وأبعدها نفاذاً. وأنا أوصي به بقوة لكل المهتمين بالمجتمع الإسرائيلي والصراع العربي - الإسرائيلي.

أحمد السعدي

محاضر في دائرة السياسة والحكم

في جامعة بن - غوريون في النقب

(*) المصدر: *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxiv, no. 3 (Spring 2005), pp. 99-101.

ترجمة: حسني زينة.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx